﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦﴾

[المؤمنون: 76]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

سابق الإصرار والتمادي في الطّغيان سبب في وقوع البلاء

لمّا أخبر الله تعالى في الآية السابقة أنَّ رحمته وكشف ما بهم من ضرٍّ لا ينفعهم، لأنَّهم ليسوا تاركين ما هم عليه من الشّرك والطّغيان؛ استدلَّ عليه بهذه الآية، فاستشهد على مضمون الآية السابقة بسابق إصرارِهم على الشّرك والإعراض عن الالتجاء إلى الله والتَّضَرُّع إليه وعدم الاتِّعاظ بأنَّ ما حلَّ بهم من الضرِّ هو جزاء شركِهم[1].

وأيضًا قد تكون هذه الآية استدلالًا آخر أعقب الدّليل في الآية السابقة التي أفادت أنَّ جؤارَهم المذكور آنفًا لا اعتدادَ به، فجاءت هذه الآية تأييدًا له، لتدلَّ على أنَّهم لايسلكون الصِّراط إلّا اضطرارًا[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَكَانُواْ﴾: أكانَهُ يُكينُهُ إكانةً، إذا أخْضَعَهُ حتَّى اسْتكان، وأدْخَلَ عليه من الذُّلِّ ما أكانَه[3]، يقال: اسْتكانَ فُلان: تضرَّعَ وكأنَّه سَكَنَ، وتركَ الدَّعَةَ لضَراعتِه، قال تعالى: ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ [آل عمران: 146]، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾[4]، أي: فما اسْتَسْلموا، وما خَضَعوا[5]، وما تذلَّلوا[6].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 146.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 171.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (كان).
(4) الرّاغب، المفردات: (كان).
(5) تفسير مقاتل: 2/ 32.
(6) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 672.

2) ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾: (ضرع) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى لينٍ في الشَّيْءِ[1]، ضَرَعَ الرَّجلُ ضَراعةً: ضَعُفَ وذَلّ، فهو ضارِعٌ، وضَرِعٌ، وتضرَّعَ: أظْهرَ الضَّراعة، قالَ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام: 42]، والمضارعةُ أصْلُها: التَّشارُكُ في الضَّراعة، ثمَّ جُرِّدَ للمُشاركة، ومنه اسْتعارَ النَّحْويونَ لفظَ الفعلِ المضارع[2].

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، أي: وما يَرغبونَ إلى اللّهِ في الدُّعاء[3]، وما يَخشَعونَ للّهِ في الشَّدائدِ عندَ إصابتِها لهم[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّهُ تعالى فيقول: ولقدِ ابْتَلَيناهم بالمصائبِ والشَّدائد، فما ردَّهم ذلك عمّا كانوا فيه من الكفرِ والمخالفة، بلِ اسْتمرّوا على غَيِّهم وضلالِهم، فما خَشَعوا وما دَعَوُا اللّهَ وما رَغِبوا إليه[5].

إصـرارُ الـكـفّـارِ على كِـبْرِهـم مع ابْـتـلائـهـم بـمـا يُـعـيـدُهـم إلى رُشْدِهم

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الواو:

الواو في قولِه ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ استئناف[6]، سيقت في مقام الاستدلال على عدم انتفاعِهم من رحمة اللّه لو رحمهم وكشف ما بهم من ضرٍّ كما تقدَّم في مناسبة الآية، وللاستشهاد على ارتدادِهم إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول اللّه ﷺ والمؤمنين وإفراطهم فيها[7]، وأنّهم لا ينتفعون بالآيات البيّنات مكابرةً وجحودًا.

دلالـــــة واو الاستئناف على وصـل الجملة بـمـا قـبـلـهـا وتـضـمـيـنـهـا معنى مستقلًّا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرع).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (ضرع).
(3) تفسير مقاتل: 2/ 32.
(4) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 672.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 238.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 100.
(7) الزمخشري، الكشاف: 3/ 197.

مناسبة الاستدلال في الآية:

الاستدلال بشواهد الأحوال لإقامة الحجّة وقطع الأعذار

في هذه الآية اسْتِدْلالٌ عَلَى مَضْمونِ قَوْلِهِ ﴿*وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ بسابقِ إصْرارِهِمْ عَلَى الشِّرْكِ والإعْراضِ عَنِ الالتِجاءِ إلَى اللّهِ وعَدَمِ الاتِّعاظِ بِأنَّ ما حَلَّ بِهِمْ مِنَ العَذابِ هوَ جَزاءُ شِرْكِهِمْ، ولمّا كان الخطاب متعلِّقًا بالمُشْرِكينَ وكانَ بِحَيْثُ يَبْلُغُ أسْماعَهُمْ وهُمْ لا يُؤْمِنونَ بِأنَّهُ كَلامُ مَنْ لا شَكَّ في صِدْقِهِ؛ كانَ المَقامُ مَحْفوفًا بِما يَقْتَضي الاسْتِدْلالَ عليهِمْ بِشَواهِدِ أحْوالِهِمْ فيما مَضَى ولِذَلِكَ وقَعَ قَبْلَهُ ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [المُؤْمِنون: 54]، ووَقَعَ بَعْدَهُ ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

فائدة تتابع التأكيد في قوله ﴿وَلَقَدْ﴾:

من لم يتّعظ بالبلاء كان في مقام المنكر له

ورد تأكيدان في الجملة أحدهما اللام الواقعة في جواب قسم محذوف، والتّقدير: (باللّه لقد أخذناهم بالعذاب)، والآخر (قَدْ)، ومناسبة مجيء تأكيدين هو أنَّه لمّا لم ينتفع الكافرون بالامتحان بما أصابَهم من فنون العذاب كالقتل والقحط والجوع وغيرها كان حالُهم حالَ المنكر وقوع العذاب عليه، لعدم تدبّره في العذاب وإنابته إلى ربه، كما أنَّ في تتابع التأكيد تقريرَ تحقّق الأخذ بالعذاب وتقوّيه.

فائدة الباء في قوله ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾:

التّحذير من الغفلة بسبب كشف العذاب مع الاستمرار على الكفر

الباء للملابسة بمعنى أخذناهم متلبِّسين بالعذاب، أي إنه سبحانه أخذهم، وهم في حال العذاب وأنقذهم، ومع ذلك استمرّوا على كفرهم، ليفيد أنَّهم يستمرّون في غيّهم حتّى يجيئهم العذاب الذي لا يزول.

فائدة (أل) في قوله ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾:

(أل) هنا عهدية، فيكون المرادُ من العذاب هو المذكورَ آنِفًا في قولِه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾ [المؤمنون: 64][2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 100.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 100.

نكتة تقييد الأخذِ بلفظ ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾:

التّفريق بين الأخذ بالعذاب والأخذ بالذّنوب

ذَكَر الله هنا أنَّه أخَذَهم بالعذابِ، ولم يقُلْ: أخذناهم بالذُّنوبِ؛ لأنَّ المقصود من مجيء العذاب هنا تحذيرهم وامتحانُهم أي أخذناهم بالمَصائِبِ والشَّدائِدِ[1]؛ لينيبوا إلى ربِّهم، فكأنَّه ضمَّنَ ذلك معنَى: جذَبْناهم إلينا ليَتوبوا، ويَسْتَكينوا ويَتضرَّعوا، وإذا قال: فأخَذَهم اللهُ بذنوبِهم، يكونُ قد أهلَكَهم، فأخَذَهم إليه بالإهلاكِ، وليس المقصود الإهلاك بقرينة قوله ﴿فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[2].

دلالة الفاء في قوله ﴿فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾:

الأخذ بالعذاب اختبار فمن لم يتب فهو معاند مستكبر

الفاء هنا عاطفة للتّرتيب والتّعقيب، أي لمّا كان الظّاهر أن يكون الأخذ بالعذاب سببًا لخضوعِهم لربِّهم وذلَّتهم له سبحانه شعورًا بالنّدم والذلَّة له ترتب عليه العكس وأعقبه إقامتُهم على كفرِهم وطغيانِهم إشعارًا بعنادِهم واستكبارِهم، لأنَّ الأخذَ بالعذاب الذي هو اختبارٌ وامتحانٌ لهم كان يقتضي الاستكانةَ إلى ربِّ العالمين والذلَّة والخضوع له، فلمّا لم يستكينوا ولم يخضعوا دلَّ على أنّهم معاندون مستكبرون.

دلالة (ما) في قوله ﴿فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾:

استمرار الكافرين في جحودهم وعنادهم

أفاد النّفي بـ(ما) تأكيد نفي استكانتِهم ومثله تأكيد نفي دوام تضرُّعهم، لأنَّ (ما فعل) نفي لـ (قد فعل)، كما أنَّ فيها إيماءً إلى نفي أصل وجود الفعل، بمعنى ما وُجِدَتْ بعدَ أخذِهم بالعذاب استكانةٌ ولا وُجِدَ منهم دوامٌ على التضرُّعِ[3].

نكتة التعبير بلفظ ﴿ٱسۡتَكَانُواْ﴾:

الاستكانة إلى الله خضوعٌ وانقيادٌ واستسلامٌ

لفظ ﴿ٱسۡتَكَانُواْ﴾ يحتمل أن يكون مشتقًّا من الكون، ويكون اللفظ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 487.
(2) ابن تيمية، جامع الرسائل: 1/ 135.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 98.

على وزن استفعل، لتكون الاستكانة على معنى الانتقال من كون إلى كون، وحال إلى حال، فيكون التّعبير بهذا اللفظ إيذانًا بأنَّهم كانوا متمرّدين على ربِّهم وأنَّهم لم يغيّروا حالَهم بحيث يخضعون لربِّهم، والمعنى فما انتقلوا من الكَوْن الذي هم فيه وهو الكفر إلى الكون الذي يدعوهم رسولهم إليه، وهو الإيمان باللّه ورسوله، ويحتمل أن يكون مشتقًّا مِنَ السُّكونِ؛ فيكون استكان على وزن افتعل، والمعنى أنَّهم لم يسكنوا لربِّهم ويخضعوا خضوعَ المستسلم أمامَ ربِّهم، فعبِّرَ ﴿ٱسْتَكَانُواْ﴾ للدلالة على أنَّ المطلوبَ هو تَمَكُّنُ السُّكونِ من المخاطبين أمامَ ربِّهم ولكنّهم لم ينقادوا له سبحانه، فعلى الاحتمالين المراد من نفي الاستكانة نفي الخضوع[1].

بلاغة الكناية:

عـدم الخضوع إلى الله والتذلّل لــه سبـحـانـه دليل الاستكبار والعتوّ

لمّا كان المعنى في قوله ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أنَّهم لم يتذلَّلوا لربِّهم ولم يخضعوا له أفادَ الكلام بلازمِه أنَّهم أقاموا على استكبارِهم وعتوّهم واجترائِهم على ربِّهم بالإشراك وبالطّغيانِ، فالمراد من النّفي ظاهره ولازمه، أي الجمع بين الملزوم ولازمِه تكثيرًا للمعنى وإيجازًا في اللفظ[2].

فائدة اللام في قوله ﴿لِرَبِّهِمْ﴾:

اللّام للاختصاص، بمعنى أنَّ الاستكانة لا تكون ولا تُستَحَقُّ إلّا لربِّ العالمين، وهو الذي أنعم عليهم بالنّعم وأمهلهم مع شدّة كفرهم وطغيانهم وجحودهم.

---

(1) أبو الحسن المجاشعي، النكت في القرآن الكريم، ص: 353، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 425، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 152، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 288، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 209، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 101، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 10103.

(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 11/ 54، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 93، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 597.

مناسبة التّعبير بالربوبيّة في قولِه ﴿لِرَبِّهِمْ﴾:

الابتلاء محنةٌ في الظاهر منحةٌ في الباطن

لمّا كان لفظ الرّب بمعنى المحسن المنعم أفاد أنَّ أخذهم بالعذاب ومحنتَهم به إحسانٌ منه تعالى، ليكون الأخذ بالعذاب على وجه الامتحانِ لينيبوا إليه، كما أفادَ التّعبير أنَّ الاستكانةَ إنعامٌ من الله تعالى على عبادِه، فالمستكين يستشعر نعمةَ الله عليه.

فائدة الإضافة في قولِه ﴿لِرَبِّهِمْ﴾:

التّعجيب ممّن لم يرجعْ إلى ربِّه ويَنِبْ إليه عند الابتلاء

أفادت الإضافة في قولِه ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ التّخصيص، وتفيد التّعجيب من انتفاء استكانتِهم، أي لم يستكينوا إليه تعالى عند الابتلاء مع أنَّه هو الملك المنعم عليهم القائم برعايتِهم والعناية بهم في كلِّ سكناتِهم وحركاتِهم.

نكتة عطف نفي التَّضرُّع على نفي الاستكانة:

من علامات الانتفاع من الابتلاء الاستكانة لله والتضرُّع له سبحانه

في العطف إشعارٌ بالانتقال من الأهمِّ إلى المهمِّ، فكأنَّ العطف جاء على سبيل التنزّل في الكلام، أي ما استكانوا لربِّهم فأقاموا على الكفر، فنفى الأهمَّ ثمَّ نفى ما ينبغي أن يُفعلَ وإن كانوا كافرين وهو التضرّع، فقال ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، أي لمّا لم يستكينوا لربِّهم كان على الأقل أن يتضرَّعوا لربِّهم، لكنَّهم ما تضرَّعوا كما أنَّهم ما استكانوا له ﷻ.

نكتة تكرار حرف النّفي (ما):

الاستمرار في التضرّع في عموم الأوقاتِ مرغوب محبوب

أفاد تكرار حرف النّفي (ما) في قولِه ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أنَّهم لم يجمعوا بين الاستكانة إلى ربِّهم والتضرُّع له، كما أنَّهم لم يعملوا بأيِّ واحدٍ منهما ولو كان على الانفراد والاستقلال، أي كان الأجدر فعل الأمرين ولكنَّهم لم يفعلوا أيَّ واحدٍ منهما ولو كان على حدةٍ، مبالغةً في ذمِّهم وتوبيخِهم.

نكتة العدول عن مقتضى الظّاهر:

لمّا كان الأصلُ في العطف على الفعل الماضي أن يكون بنفسِ

صيغتِه كان العطفُ بصيغة المضارع في قوله ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ عدولًا عن مقتضى الظّاهر، وفائدته الإشعار بأنَّه ما مِنْ عادَةِ هَؤُلاءِ أنْ يَتَضَرَّعوا، وأنَّ المطلوب هو الاستمرارُ في التضرُّعِ في عمومِ الأوقات، كما أنَّ فيه رعايةَ الفاصلة، وقد يقال: ولِمَ لم يأتِ الفعل ﴿ٱسْتَكَانُواْ﴾ بصيغة المضارع؟، فيقال: (فما يستكينون لربِهم وما يتضرَّعون) ويجاب بأنّ ﴿ٱسْتَكَانُواْ﴾ على ظاهره في نفي الوقوع في الماضي وعلى وفق المقصود لإفادتِه نفي وقوع أصل وجودِ الاستكانةِ وانتفاء تحقّق ولو جزءٍ منها؛ أي أصلًا لم تقع منهم الاستكانة، كما أنَّ الفعل ﴿ٱسْتَكَانُواْ﴾ مرتَّبٌ بالفاء على الفعل الماضي في قوله ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾[1].

نكتة التّعبير بلفظ التضرُّع:

لمّا كان التضرّع إلى الله تعالى بمعنى شدَّة الفقر إلى الله والحاجة إليه تذلُّلًا وضعفًا وانقيادًا لأمرِه تعالى وأمرِ رسولِه ﷺ؛ كان معنى التضرّع في قوله ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ على معنى الخضوع لهما في القلب والظّاهر، لأنَّ (تضرَّع) بمعنى أظهر الضّراعة[2]، فلمّا نفى تضرُّع الكافرين عند الأخذِ بالعذاب كان المعنى على نفي دوامِ الانقيادِ والخضوع في ظاهرِهم وباطنِهم، فإنَّ التضرُّع في بعض الأوقات دونَ بعضٍ كلا تضرُّع، ويحتمل أن يقال المراد دوام نفي التضرّع، أي عادتهم هي انتفاء تضرعّهم إليه تعالى في ظاهرِهم وباطنِهم[3].

التضرُّعُ في بعض الأوقات دونَ بعضٍ كلا تضرُّع

نكتة حذف معمول ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾:

كان الظّاهر أن يقال (وما يتضرّعون إلى ربِّهم)، لينا سبَ الفعل

الكافرون المعاندون عادتهم وطبعهم أنَّهم لا يتضرَّعون لربِّهم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 288، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 93، والطيبي، حاشية على الكشاف: 10/ 616، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 209.

(2) الراغب، المفردات: (ضرع).

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 209، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 256.

الذي سبقه، وسبب حذف المعمول ضعف التأليف بتكرارِ اللفظ لغيرِ فائدةٍ، بل في الحذف تكمن الفائدة، فإنَّ فيه إيذانًا بأنَّ هذا هو طبعُهم وعادتُهم، وأنَّه صارَ وصفًا لازمًا لهم، فلا يأتي منهم إلّا انتفاء التّضرّع إلى ربِّهم، فهم على ما جبلوا عليه من الاستكبار والعتوِّ، كما أنَّ في حذف المعمول رعايةً للفاصلةِ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»